Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

The Relationship between Aesthetics and Anthropology

Zahra' Abdul-Baqi Abdul-Wahid
Assistant Lecturer in the Department of Philosophy, College of Arts, University of Basra, Iraq.
E-mail: zhab22522@gmail.com

Summary

The relationship between aesthetics and anthropology dates back to ancient Greece. It has taken various forms. Some considered it merely a social phenomenon, placing art in the service of the public, while others believed that artistic activity was simply a luxury. There were also those who combined these perspectives, as well as those who linked art with ethics, and some who advocated "art for art›s sake." It must be stated that the relationship between art, social classes, and the function of art—whether effective or ineffective—emerged as a result of the simultaneous development of societies and the arts. In this study, through a descriptive and analytical approach, we sought to clarify the relationship between anthropology and aesthetics. We began by discussing the concepts of aesthetics and anthropology, discussing the connection between beauty and anthropology, and examining the views of early aesthetic sociologists, whose perspectives were shaped by the influence of social and natural factors. We then explored the functions of art in society, questioning whether there is a connection between anthropology and beauty according to the views of the philosopher and social thinker Émile Durkheim and the philosopher Charles Lalo. Finally, we concluded that art is not detached from its social responsibility and cannot be imagined as disconnected from society, whether in terms of its subject matter or its purpose. Art is, in essence, a genuine expression of the human spirit.

Keywords: Aesthetics, Anthropology, Social Aesthetics, Functions of Art.

Al-Daleel، 2024، Vol. 7، No . 3، PP .173-186

Received: 03/10/2024; Accepted: 08/11/2024

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

©the author(s)

مؤسسة الدليل
للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution
for Doctrinal Studies
Al-Daleel الدليل

العلاقة بين الأستطيقا والأنثروبولوجيا

زهراء عبد الباقي عبد الواحد

مدرس مساعد في قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة البصرة، العراق.

البريد الإلكتروني: zhab22522@gmail.com

الخلاصة

تعود العلاقة بين الأستطيقا والأنثروبولوجيا إلى عهد اليونان. واتّخذت أشكالًا متعدّدةً، فمنهم من جعلها مجرّد ظاهرة اجتماعية جاعلًا الفنّ في خدمة الجمهور، ومنهم من توهّم أنّ النشاط الفنّي مجرّد ترف، وهناك من جمع بين وجهتي النظر، وهناك من ربط الفنّ بالأخلاق، ومنهم من جعل الفنّ للفنّ، ولا بدّ لنا من القول إنّ العلاقة بين الفنّ والطبقات الاجتماعية ووظيفة الفنّ كانت وظيفةً فعّالةً أو غير فعّالة قد جاءت نتيجةً لتطوّر المجتمعات وتطوّر الفنون في الوقت نفسه. من هنا حاولنا في هذا البحث بمنهج توصيفي وتحليلي أن نوضّح العلاقة بين الأنثروبولوجيا والأستطيقا؛ إذ تطرّقنا في البداية الى مفهوم الأستطيقا ومفهوم الأنثروبولوجيا، وما العلاقة بين الجمال والأنثروبولوجيا؟ وما آراء علماء الاجتماع الجماليين الأوائل؟ فقد جاءت وجهة نظرهم من خلال تأثير العوامل الاجتماعية والطبيعية. ومن ثمّ التوصّل إلى وظائف الفنّ في المجتمع، فهل هنالك علاقة للأنثروبولوجيا في الجمال حسب آراء كلٍّ من الفيلسوف والمفكّر الاجتماعي دوركايم والفيلسوف شارل لالو؟ وفي النهاية وصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ الفنّ ليس مجرّدًا عن مسؤوليته الاجتماعية، ولا يمكن تصوّر الفنّ منقطع الصلة بالمجتمع، سواء من حيث الموضوع أو الغاية. إنّ الفنّ تعبير أصيل عن جوهرية الإنسان.

الكلمات المفتاحية: الأستطيقا، الأنثروبولوجيا، علم الجمال الاجتماعي، وظائف الفنّ.

مجلة الدليل، 2024، السنة السابعة، العدد الثالث، ص. 173 - 186

استلام: 2024/10/03، القبول: 2024/11/08

الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلّف

المقدّمة

إنّ دراسة الجمال في علم الاجتماع كانت في بادئ الامر بحثًا أخلاقيًّا وسياسيًّا عند اليونان، وخاصّةً عند الفيلسوفين أفلاطون وأرسطو فكان الفنّ في نظرهم من جملة سياسة المدن وشؤون إدارة المدينة، وفي مطلع القرن الثامن عشر أشاع استعمال هذه الكلمة الفيلسوف الألماني كانط (Kant) في كتابة المعروف "الأنثروبولوجيا من منظور عملي"، وهو يتّفق مع علماء الاجتماع في معالجة شؤون الفنّ؛ لأنّه لا يؤمن بإمكان ابتكاره إلّا في المجتمع، فمعظم فلاسفة القرون الماضية قد وضعوا الفنّ على قدم المساواة مع الدين والأخلاق وغيرها من مظاهر النشاط البشري؛ باعتباره ظاهرةً حضاريةً تتطوّر مع التاريخ وتتأثّر بأوضاع المجتمع، أمّا علماء الاجتماع الجماليين فقد كانت نظرتهم للفنّ من خلال تأثير العوامل الاجتماعية والطبيعية على الفنّان، وبالتالي تأثيرها على إنتاج الفنّان. وقد جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث، الأوّل كان "تعريف مفهوم الأستطيقا والأنثروبولوجيا بصورة عامة من حيث النشأة والاصطلاح"، والمبحث الثاني كان تحت عنوان "العلاقة بين الأستطيقا والأنثروبولوجيا" تناولت فيه العلاقة بين الجمال والأنثروبولوجيا، وتطرّقت فيه أيضًا إلى أبرز آراء الفلاسفة وعلماء الاجتماع كإميل دوركايم والفيلسوف شارل لالو وأهمّ آرائهم في علاقة الأستطيقا بعلم الاجتماع، وأمّا المبحث الثالث فقد كان تحت عنوان " أهمّ وظائف الفنّ في المجتمع".

المبحث الأوّل: مفهوم الأستطيقا والأنثروبولوجيا

أوّلًا: الأستطيقا (علم الجمال)

إنّ تعلّق الإنسان بالجمال واستمتاعه به وإعجابه بمظاهر الطبيعة قديم قدم الإنسان، وهذا ما لاحظناه في العصر الحجري وما تلاه في الحضارات القديمة، منها حضارات بلاد الرافدين والحضارة اليونانية، فقد مجّدوا ربّات الفنون، وقدّموا لها القرابين؛ إيمانًا منهم بتقديس مظاهر الجمال الخالدة في الفنّ والطبيعة، فقد كان الشعور سابقًا على النشاط الفنّي. لقد أحسّ الإنسان بجمال غروب الشمس وبجمال الأزهار قبل أن تكون هناك لوحات فنّية أو منحوتات، أي أنّ هناك جمالًا طبيعيًّا سابقًا على الجمال الفنّي، فما الجمال؟ أو الأستطيقا؟

الأستطيقا (Aesthetics) أو علم الجمال هو علم تمثّل الإنسان للعالم تمثّلًا جماليًّا محكومًا بالقانون والجوهر، وقوانين تطوّر الفنّ ودوره في التحويل الاجتماعي، كشكل خاصّ من أشكال هذا التمثّل. [روزنتال، الموسوعة الفلسفية، ص 304]

وعلم الجمال لا يبحث فيما إذا كان هذا الشيء مفيدًا وضارًّا صادقًا أو كاذبًا، بل يبحث في الجمال ومقاييسه ونظرياته، وفي الذوق الفنّي والأحكام التي تنصبّ على الأعمال الفنّية وينقسم علم الجمال إلى قسمين:

قسم نظري: يبحث في الصفات المشتركة بين الأشياء الجميلة التي تولّد الشعور بالجمال، ويحلّل هذا الشعور ويفسّره تفسيرًا فلسفيًّا ويضع له قيوده وضوابطه.

وقسم عملي وهو "علم الجمال العملي" الذي يبحث في مختلف صور الفنّ ويحمله على نماذجه الفردية [جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، ص 408]، وعلم الجمال لم يستقلّ ويصبح فرعًا من فروع الفلسفة إلّا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر على يد الفيلسوف الألماني بومجارتن (Baumgarten)، عندما عرّف هذا العلم باسم الأستطيقا وحدّد موضوعه في تلك الدراسات التي تدور حول منطق الشعور والخيال الفنّي، وهو منطق يختلف عن منطق العلم والتفكير العقلي. ومنذ ذلك التاريخ صار لعلم الجمال (الأستطيقا) مجاله المستقلّ عن مجال المعرفة النظرية وعن مجال الأخلاق، وسار في تأكيد هذا الاتّجاه أيضًا الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط الذي قال: «إنّ الخبرة الجمالية لا ترجع إلى النشاط النظري الذي يقوم به الذهن والذي يحدد شروط المعرفة في علوم الرياضة والفيزياء كما لا يرجع إلى النشاط الذي يحدّد السلوك الأخلاقي المعتمد على الإرادة، لكنّه يرجع إلى اللعب الحرّ بين الخيال والذهن» [حسين علي، فلسفة الفنّ.. رؤية جديدة، ص 16].

ثانيًا: الأنثروبولوجيا (Anthropology)

إنّ لفظ "الأنثروبولوجيا" هي «كلمة إنكليزية مشتقّة من الأصل اليوناني المكوّن من مقطعين: أنثروبوس ومعناه (الإنسان)، و لوجوس ومعناه (علم)، وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ علم الانسان، أي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائنٌ عضويٌّ حيٌّ يعيش في مجتمع تسوده نظم ونسق اجتماعية في ظلّ ثقافة معيّنة» [الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، ص 12].

تهدف الأنثروبولوجيا في مدارسها وتيّاراتها المتعدّدة إلى الكشف عن الدلالة الخاصّة بالإنسان وتنوّع الثقافات وتعدّد الأنظمة وتوالي التغيّرات عبر الزمان والمكان، وهي تبحث في الطريقة المتفرّدة التي يتشكّل فيها ويتبنّاها الكائن البشري في الوصول الى إنسانيته وتحقيقها وتجلّي جوهره الإنساني في دائرة الجماعة والمجتمع كونه عضوًا ينتسب إليهما. [انظر: سليمان، ماهية الأنثروبولوجيا، مجلّة أفكار، العدد الثاني]

وقد تشكّلت الأنثروبولوجيا على مرحلتين: «الأولى ظهرت على شكل تصوّر فلسفي، والأخرى على شكل مجتمعي، فالإنسان كان منذ تكون الفكر الخرافي في الثقافات القديمة حتّى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين موضوعًا فلسفيًّا، ولطالما كانت الماهية الإنسانية مطلبًا حيويًّا في كلّ فلسفة حقيقية جادّة عبر التاريخ، وقد ابتدأت هذه الروح الفلسفية في مقولة سقراط الشهيرة "أيّها الإنسان.. اعرف نفسك"، وعند جان جاك روسو في كتابة "الإنسان النبيل"، وكذلك عند الفلاسفة العرب والمسلمين الذين كان الإنسان محور الفلسفة عندهم» [المصدر السابق].

إنّ الأنثروبولوجيا ابتدأت جذورها في تاريخ الفكر الإنساني منذ القدم، إنّها تتجلّى في أدبيات الإغريق القديمة، لا سيّما في الأوصاف التاريخية التي قدّمها هيرودوت (Herodot) للثقافات القديمة. [الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، ص 20] وكذلك تجلّت في تاريخ الرحّالة العرب والوصف الذي قدّموه عن الثقافات الإنسانية (الأثنولوجي والأثنوغرافي)، وعن الأمصار التي زاروها وتعايشوا معها، وكتبوا عن ثقافتها في كثير من الكتب والرسائل التي كانوا يرسلونها إلى مراكز الخلافة، أمثال ابن فضلان والمسعودي وغيرهما، وخطّوا نوعًا من الأدب يعرف بـ"أدب الرحلات"، وأمّا الأنثروبولوجيا فلم تشهد ولادتها بوصفها علمًا إلّا في القرن الثامن عشر وبعد هذه الفترة شهد ظهور العناصر المكوّنة لهذا العلم، فكتب الكثير من المفكّرين والفلاسفة في هذا العلم منهم ديفيد هيوم (David Hume) وآدم سمث (Adam Smith)، عن نظرتهما إلى المجتمعات باعتبارها تتكون من أنساق طبيعية واعتقادهم بالتطوّر غير المحدود وبوجود القوانين لذلك التطوّر، فكانت هذه الآراء البذرات الأولى والمكوّنات الأساسية التي نمت في القرن التاسع

عـشر. وهنالـك تداخـل كبير بـين الأنثروبولوجيا وعلـم الاجتماع، فمـن خلال تعريـف مصطلح علم الاجتمـاع الذي عـرّف في المعاجـم و الموسـوعات بأنّـه «علـم مشـتقّ مـن كلمتـين الأولى هي "سوسـيو" اللاتينيـة وتعـني رفيـق أو مجتمـع، والثانية "لوغـوس" اليونانيـة وتعني العلـم أو البحث. وبمـا أنّ علم الاجتمـاع يتنـاول التفاعـل الاجتمـاعي عندما يـدرس الجماعة، فهذا يـدلّ على وجود ترابـط كبير بين علـم الاجتمـاع والأنثروبولوجيا، فكلاهما يـدرس البناء الاجتمـاعي والوظائف الاجتماعية» [الشـماس، ص 38].

فعلـم الاجتمـاع إذن يـدرس العلاقـات بـين الأفـراد وعمليـات التفاعل فيمـا بينهـم وتصرّفاتهم كأعضـاء مكوّنـين لهـذه الجماعـة، فهـو يركّـز على سـلوكيات الأفـراد ضمن هـذا المجتمـع أو ذاك، ويـدرس أيضًـا تأثـير البيئـة الاجتماعيـة في تكويـن الشـخصية الإنسـانية وتحديـد العلاقـات بـين الأفراد.

المبحث الثاني: العلاقة بين الأستطيقا والأنثروبولوجيا

المطلب الأوّل: علاقة علم الجمال بالمجتمع

نـال الفـنّ وعلـم الجمـال أهمّيـةً كبيرةً مـن قبل المجتمـع، فقد أثّـر الفـنّ في الحياة النفسـية لأفراد المجتمـع، فنلاحـظ أنّه يخلـق روح التضامن عن طريـق الإعجاب بالآثـار الفنّية ممّا أدى إلى انتشـاره بـين النـاس، كمـا أنّ هـذا الإعجـاب ينبـع مـن المشـاركة الوجدانيـة، ونحن نعـرف ما لهذه المشـاركة الوجدانيـة مـن عظيـم الأثـر في حياتنـا الاجتماعيـة، فـهي الـتي تعمل على دعـم التضامن والتماسـك الاجتمـاعي. وعنـد دراسـة مفهـوم الجمال في مجتمع مـا يتطلّب منّا دراسـة مجمل العلاقـات الاجتماعية والثقافيـة الـتي ولدت نتيجـة التطـوّر الاجتمـاعي التاريـخي لذلـك المجتمع، وهـو تطوّر يرتبـط بتاريخ الثقافـة والسياسـة والاقتصـاد في المجتمـع، وبالتقاليـد والنظـم الأخلاقيـة والجماليـة والفكريـة التي يتميّز بهـا ذلـك المجتمع عن غـيره من المجتمعـات. [صديـق، فلسـفة الجـمال ومسـائل الفـنّ، ص 22]

وأرجـع العديـد مـن علمـاء الاجتمـاع الفـنّ إلى الظاهـرة الاجتماعيـة، وأطلقـوا عليـه الجمـال الاجتمـاعي، وهـو ذلـك "الفـرع مـن علـم الاجتمـاع الذي يختصّ بدراسـة ظواهـر الجمـال والفنّ من خـلال المجتمـع، وتحليـل أهمّيـة ووظيفة ونشـأة وتطـوّر الفـنّ وعلاقته بالنظـم الاجتماعيـة الأخرى» [عبـد المنعـم، القيـم الجماليـة، ص 339].

ويعـدّ شـارل لالـو (Charles Lalou) وفلدمـان (Feldman) مـن أوائـل مـن أُطلـق عليه اسـم علم الجمـال الاجتمـاعي. ويرجـع سـبب إدراج الفنّ ضمـن الدراسـات الاجتماعيـة إلى الاعتقـاد بأنّه عمل اجتمـاعي، وأنّ الفنّـان هـو شـخص يحترف مهنـةً. [عـوض، مقدّمـات في فلسـفة الجـمال، ص 69]

فالفـنّ منـذ القـدم لم يكـن نتاجًـا فرديًّا بـل جماعيًّا رغـم السـمات الفرديـة الأولى التي قـد بدأت تظهـر مـن خـلال شـخص "السـاحر". كان المجتمع البـدائي يمثّـل نموذجًا قويًّـا في الترابط بـين الأفراد والجماعـة، ولـم يكـن هنـاك ما هو أشـد هولًا مـن أن يطـرد إنسـان خـارج القبيلـة، فالانفصال عن الفئـة أو الجماعـة كان يعـني الموت المحتّم بالنسـبة للفرد. لقـد كان الفنّ بكلّ أشـكاله (اللغة أو الرقص أو الأغاني الإيقاعيـة أو الطقـوس السـحرية) يشـكّل النشـاط الاجتماعي في أجلى صوره، وكان النشـاط المشـترك بـين الجميـع هـو الذي يرفعهـم فـوق الطبيعـة وفـوق العالـم الحيـواني، ولـم يفقد الفـنّ هذا الطابـع الجمـاعي بعـد مـرور زمـن طويل على انهيـار الجماعـة البدائيـة وحلول مجتمعـات أكثر تطـوّرًا. [المصدر السـابق]

وقـد كان موضـوع دراسـة علاقة الفـنّ بالمجتمع اهتمـام المفكّريـن والفنّانـين والفلاسـفة، فنادوا بعـدم فصـل الإبـداع الفـنّي عـن المجتمـع، وأنّ التجربـة الفنّيـة الذاتيـة لا قيمـة لهـا إذا فصلت عن حيـاة المجتمـع. فصحيـح أنّ الفنّـان ينطلـق مـن ذاتيتـه أو مـن الـلاوعي، غـير أنّ هـذه الذاتيـة أو الـلاوعي نـراه مندمجًـا في حيـاة الجماعـة يذيب حيـاة الفنّـان في المجتمـع ويحيطهـا بعوامـل ومؤثّرات اجتماعيـة عديـدة، فأفـكار الفنّـان نجدها بـكلّ تأكيد في مـا يقدّمه لنـا في أعماله الفنّيـة، فإلى جانب نقلـه لمشـاعره وأحاسيسـه وتصـوّره للعالـم ينقل لنـا أيضًا جـزءًا من الـوعي الاجتماعي، فهـو ينقل لنا مشـاعر الآخريـن ومصالحهـم ونظرتهم إلى المجتمـع. فالظواهر الجماليـة هنا مجرّد ظاهـرة اجتماعية في خدمـة الجمهـور، وهـذا ما بيّنـه لنـا تولسـتوي (Tolstoy) عندما عـرّف الفنّ بأنّه «هو نشـاط إنسـاني ينقـل النـاس بعـض أحاسيسـهم إلى البعـض الآخـر» [الشـكرجي، الفـنّ والأخلاق في فلسـفة الجـمال، ص 26]. ويحـاول تولسـتوي في كتابـه "مـا الفـنّ؟" ربط مفهـوم الفنّ مـع تصـوّره العـامّ للمجتمـع، وأكّد ما للفـنّ مـن تأثـير على الحيـاة تجعلـه غير مسـتقلٍّ عن مجـال الدين والاخـلاق، فهو قـوّة فعّالـة يمكن أن ترفـع الإنسـان إلى أعلى الآفـاق وتنحـطّ به إلى أحـطّ المسـتويات [المصدر السـابق]، وكذلك يقول تـين (Tin): «إنّ الفـنّ ظاهـره بشريـة تخضـع لنفـس الـشروط الحتميـة الـتي تخضـع لهـا الظواهـر البشريـة الأخـرى، ألا وهي الجنـس أو السـلالة والبيئـة أو الوسـط الاجتمـاعي والعـصر أو المرحلة التاريخيـة» [إبراهيـم زكريـا، فلسـفة الفـنّ في الفكـر المعـاصر، ص 9].

نلاحـظ أنّ الفيلسـوف تـين قـد وضع الفـنّ على قدم المسـاواة مـع مظاهـر الحياة من أخـلاق ودين وسياسـة... إلـخ؛ باعتبـار الفـنّ ظاهرةً حضاريـةً تتطوّر مـع التاريخ وتتأثّـر بأوضاع المجتمـع وتتفاعل مـع غيرها مـن الظواهـر الاجتماعية.

وقـال بعض الفلاسـفة ـ أمثال كانط (Kant) وشـيلر (Schiller) وسـبنسر (Spencer) ـ إنّ النشـاط الفـنّي مجـرّد تـرف كمـالي، وهناك من حـاول الجمـع بين وجهـتي النظر السـابقتين، فقـد ذهبت بعض

الآراء إلى اعتباره عملًا وصناعةً تعود على المجتمع بالخير والنفع، فقد حاول سوريو «أن يبحث عن الصلة بين الفنّ والصناعة؛ حتّى يجد تبريرًا لإدخال الفنّ ضمن الإنتاج الصناعي الذي يفيد المجتمع، فبيّن لنا في كتابة "مستقبل الأستطيقا" ـ الذي يوضّح الموضوعات الخاصّة بأهمّية العمل الفنّي اليدوي ومدى إقبال الجمهور على شرائه وتفضيله عن غيره من الإنتاج الصناعي ـ أنّ الفنّ لا يمكن أن يكون مضيعةً للوقت أو عبثًا؛ لأنّه يمثّل مجهود الإنسان عبر الأجيال مجسّدًا في فنون النحت أو الصور أو الرموز وغيرها» [عبد المنعم، القيم الجمالية، ص 343].

ولكن لا بدّ لنا من القول إنّ العلاقة بين الفنّ والطبقات الاجتماعية قد جاءت نتيجةً لتطوّر المجتمعات وتطوّر الفنون في الوقت نفسه. «فالمجتمع يتطلّب وينتج فنًّا يختلف باختلاف كونه مجتمعًا استعباديًّا أو ملكيًّا أو أرستقراطيًّا أو برجوازيًّا، وقد توقّع الاشتراكيون انقلابًا في كلّ الفنون إذا أخمد الصراع بين الطبقات، وأنّ هذا يؤدّي إلى اختفاء موضوعات خرافية كثيرة مبنيّة على تقاليد الطبقات الحالية، ويؤدّي إلى اختفاء الفنّ الخصوصي أو الأناني، ثمّ إلى تنظيم ترف عامّ ضخم هو الفنّ الشعبي الحقّ، هو الفنّ للجميع.. الفنّ الذي ينفذ في حياة المهن لتسهيل مهمّاتها ومسؤوليتها، وليجعلها محبّبة الى نفوس العمّال القائمين بها» [الصباغ، جماليات الفنّ.. الإطار الأخلاقي، ص 179].

وقد أكّد الفيلسوف كارل ماركس (Karl Marx) علاقة وعي الإنسان بوجوده الاجتماعي، فجعل الوجود الاجتماعي أوّليًّا، في حين أنّ الوعي ثانوي، وترتبط نظرية ماركس في الفنّ بفلسفته المادّية، وهي تنطلق من المبدإ القائل «إنّ الإنسان الاجتماعي يخلق ذاته بنشاطه وعمله وهو يتطوّر ويتغيّر أثناء تطويره الطبيعة، والفنان بوصفه كائنًا اجتماعيًّا يشارك في حياة المجتمع البيولوجية وبوصفه كائنًا واعيًا مفكّرًا يشارك في عمل الطبقة الاجتماعية طوال المرحلة التاريخية التي تبدأ من المرحلة البدائية أو المجتمع الخالي من الطبقات إلى المرحلة الشيوعية التي تزول فيها الطبقات» [بوملحم، نحو رؤية جديدة في فلسفة الفنّ، ص 75]، ويؤكّد لنا بليخانوف (Plehanov) أيضًا على علاقة الفنّ بالمجتمع حين قال: وعي الناس يتحدّد بطراز حياتهم، وكلّ عمل فنّي أو أدبي يعبّر عن العلاقات الكائنة في عصره، سواءٌ من خلال شكله أو مضمونه. [الصباغ، جماليات الفنّ، ص 180]

المطلب الثاني: العلاقة بين الأستطيقا والأنثروبولوجيا في رؤية الفلاسفة والعلماء

أوّلًا: دوركايم (David Emile Durkheim)

عالم اجتماع فرنسي من أهمّ مؤلّفاته "أصول تقسيم العمل الاجتماعي" عام 1983 و"قواعد المنهج في علم الاجتماع" عام 1895 و"الأشكال والأوّلية للحياة الدينية" عام 1912.

[عبد المنعم، القيم الجمالية، ص 290] وبعد وفاته ظهر له كتابا "التربية وعلم الاجتماع" و "التربية الأخلاقية". [بنروبي، مصادر وتيّارات الفلسفة المعاصرة، ص 126]

يرى أنّ في الدين نظامًا اجتماعيًّا هو الأصل في نشأة الفنّ، وأنّ الدين عامل مهمّ في تشكيل الحياة البدائية للإنسان، فقد كان السحرة ورجال الدين عند البدائيين هم الذين يسيطرون على حياة الناس، ويتصدّرون مراسيم الأعياد و الزواج والحرب والمراسيم الدينية؛ إذ كان العنصر الفنّي يظهر بوضوح في مشاهد الرقص الديني ونغمات الموسيقى الجنائزية والموسيقى الحربية التي كانت تشدّ من عزم الجند، وكذلك صور الآلهة وتماثيلها، وهذا ما نشاهده عند قدماء المصريين، فطقوس الجنائز هي طقوس دينية تقوم على أعمال فنّية من رقص وموسيقى وعمارة ونحت ورسم. وكذلك في العصور الوسطى الأوربية كان الفنّ مرتبطًا بالدين، فمن رأي دوركايم أنّ للفنون غايةً دينةً، أي اجتماعية، والدين كنظام اجتماعي هو في الأصل نشأة الفنّ. [ابوريان، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، ص 167]

ويربط دوركايم بين الفنّ واللهو، ويرى أنّ الأوّل يتمثّل في النشاط التلقائي الحرّ، ويقول في كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي": «إنّ الفنّ ليس أكثر من الحاجة إلى إشباع حاجاتنا إلى بذل نشاطٍ لا غرض منه سوى المتعة أو اللذة» [عبد المنعم، القيم الجمالية، ص 393]. وهو بهذا يتّفق مع بعض الفلاسفة التي فسّرت الفنّ بأنّه نشاط حرٌّ مثل كانط وشيلر وهربرت سبنسر. [شارل لالو، مبادئ علم الجمال، ص 51]

ثانيًا: شارل لالو (Charles Lalou)

عالم موسيقي وناقد جمالي وفيلسوف فرنسي، يعدّ من أهمّ رموز الأستطيقا الفرنسية الحديثة بما قدّمه من محاولات لإقامة علم جمالٍ على أسس علمية موضوعية. ألّف أكثر من خمسة عشر كتابًا شكّلت موسوعةً متكاملةً في علم الجمال، ومن أهمّها "نحو أسس علمية متكاملة للجماليات الموسيقية"، و"المشاعر الجمالية" و"الفنّ والحياة الاجتماعية" و"الفنّ والأخلاق" و"جماليات الضحك"، و"مفاهيم الجماليات". ساهمت مؤلّفاته في تطوير الفكر الجمالي والموسيقي في القرن العشرين. [بنروبي، مصادر وتيّارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، ص 158]

ولالو عالم جمال ذو توجّه وضعي واجتماعي، كان ينتمي في تفكيره وأسلوب بحثه إلى المدرسة الاجتماعية. أراد أن يجعل من علم الجمال علمًا دقيقًا ونظامًا من الروابط، ويرفض كلّ تصوّر عاطفي ميتافيزيقي غير عقلي، صوفي وفردي للجمال والفنّ، ويرى شارل لالو أنّه إذا شاء علم الجمال أن يصبح علمًا فينبغي أن يسري بطريقة تجريبية واجتماعية. فهو يركّز في أفكاره على ربط علم الجمال بالأنثربولوجيا من خلال المنهج التجريبي، ويقصد بالمنهج التجريبي هنا دراسة

الجماليات من خلال ملاحظات واقعية وتحليل الظواهر الجمالية في سياقتها الاجتماعية والثقافية بدلًا من الاعتماد على التأمّل النظري أو الفلسفي فقط.

واستنادًا لقواعد المنهج التجريبي لدوركايم، يرى لالو أنّ الظاهرة الجمالية واقعة اجتماعية ويقول: «إنّ شكل فكرة الجمال هو شكل الأمر: أي شكل سلطة تفرض نفسها بمقتضى تنظيم اجتماعي قادر على تثبيت القيم» [المصدر السابق، ص 159]. وإن علم الجمال كي يكون علمًا «ينبغي أن يكون تجريبيًّا، ولكي يكون تجريبًّا مع بقائه جماليًّا ينبغي أن يكون اجتماعيًّا؛ لأنّه يرى أنّ علم الجمال الكامل يكون دراسةً علميةً لكلّ أحوال الجمال من أشدّها تجريدًا إلى أكثرها عينيةً دون استبعاد شيء، وهكذا سيكون في وقت واحد أو مرّةً بعد مرّةٍ رياضيات وفسيولوجيا وعلم نفس وعلم اجتماع» [انظر: المصدر السابق، ص 160]. فاللذّة الجمالية من وجهة نظر شارل لالو متعة خاصّة جدًّا، ناشئة عن مطلب فنّي منظّم نظّمه المجتمع. ويحدد شارل لالو الطابع الاجتماعي لعلم الجمال ويقول: «إنّ الظروف الجماعية للحياة تحدّد من بين الملكات والتفضيلات أو الاستعدادات الفردية تلك التي ستكون جماليةً وتلك التي لن تكون كذلك، وتطبع في الأشخاص المختلفين أشدّ الاختلاف اتّجاهًا مشتركًا يسود في الواقع اختلافات أمزجتهم، وتقرّر ما إذا كان يمكن الإفادة منها في هذا الميدان أو ذاك، وما إذا كان سيكون لها هذه القيمة أو تلك، وحينما تصبح الوقائع ألوانًا من الأوامر الاجتماعية، فإنّها تصبح ذات قيمة جمالية» [المصدر السابق].

وبيّن لنا شارل لالو في كتابه "مبادئ علم الجمال" أنّ الحياة الاجتماعية تفرض على الفكر الأستطيقي عددًا من الشروط خارجة عن المجال الأستطيقي، وتحدث في الفنّ تأليفًا ساميًا، ومن هذه الشروط «الشرط المادّي، حيث إنّ المادّة تخضع باستمرار للتغيّر بفعل الحرف، وهذا التغيير يمثّل شروطًا جديدةً خارجةً عن الميدان الأستطيقي، وتتّصف بالجمعية، وأنّها بالمعتاد تكون منظّمةً» [لالو، مبادئ علم الجمال (الأستطيقا)، ص 138]. أي أنّ هنالك بعض الفنون تتغيّر بتغيّر المجتمعات والسياسات، فالمجتمع يتطلّب وينتج فنًّا يختلف باختلاف كونه مجتمعًا استعباديًّا أو ملكيًّا أو أرستقراطيًّا أو برجوازيًّا.

وتعدّ النظم الدينية من ضمن الشروط؛ إذ تؤثّر أقوى الأثر على النظم الفنّية، ويكون هذا التأثير مباشرًا في الحضارات البدائية؛ إذ إنّ كلّ ما هو اجتماعي ديني نتيجة لانعدام فكرة تقسيم العمل الاجتماعي، ويكون هذا التأثير غير مباشر عندما يستبقي أشياء من التقوى، ومن ذلك العتيقة المتناقلة حتّى فترة التدهور الإغريقي، ثمّ الأساليب الرومانية الحديثة القوطية الحديثة في القرن التاسع عشر، وفي إمكان أمر من أمور الحياة الدينية أن يقلب فنونًا بأكملها، مثال ذلك تحريم الصور خوفًا من الطواطم أو من الوثنية كما هو حال اليهود والمسلمين. [لالو، مبادئ علم الجمال، ص 141]

كما أنّ التنظيم العائلي يقدّم إلى الفنّ نماذج مختلفةً من الحياة العاطفية، ويقدّم كذلك جماهير وفنّانين تربّوا تربيةً مختلفةً بعضهم عن بعضهم الآخر، وتعدّ الأسرة قبل كلّ شيء النظام الاجتماعي للغريزة الجنسية؛ لهذا كان الترف الخاصّ بهذا النظام الجنسي وحده يترتّب غالبًا من الصور الخيالية للفنّ؛ نظرًا لأسباب اجتماعية، وفي الوقت نفسه لأسباب نفسية جسمية، في حين نلاحظ أنّ التنظيمات الاجتماعية الأخرى لها صور من الترف أو اللعب أكثر مادّيةً وأكثر خروجًا عن الميدان الأستطيقي، فكان اهتمام الفنّ بالحبّ خارج العائلة، واهتمامه بالخطبات المرفوضة وبالعلاقات الممنوعة، وتكون مهمّة الفنّ هي جعل ترف الحياة وجدانيةً لا يتحمّلها التنظيم العائلي في أشكال أخرى متمشّية مع الحياة الاجتماعية، ويعدّ هذا نوعًا من تطهير الانفعالات كما يقول أرسطو. أو كما يقول فرويد (Freud) من «التسامي بالغرائز الفاسقة التي كتبتها الرقابة الاجتماعية» [المصدر السابق، ص 142].

كما أنّ الاتّجاهات العقلية تؤثّر على الثقافة الأستطيقية لأمّة من الأمم، فأدب الحال أو أدب الأجيال المقبلة يتأثّر عاجلًا أو آجلًا بمشاحنات الجدال التربوي الذي يتجدّد باستمرار بين الداعين للقديم وأنصار اللاتينية، والداعين للإغريقية وأنصار اللغات الأجنبية، والفنون الترفيهية والرياضة. [المصدر السابق، ص 145]

المبحث الثالث: وظائف الفنّ في المجتمع

1ـ يعدّ الفنّ وسيلةً للترويح والتسلية عن النفس، فنلاحظ أنّه نتيجةً للتطوّرات في النواحي الاقتصادية وازدياد مجال التخصّص في الإنتاج؛ أصبح هنالك شعور عند العمّال بركود عقلي وإرهاق نفسي، فهم بحاجة إلى التجديد وبعث النشاط في حياتهم، وذلك لا يأتي إلّا عن طريق الفنّ الذي يروّح عن النفس ويجدّد النشاط، فهو يعدّ من العوامل التي تؤثّر في زيادة الإنتاج.

2ـ للفنّ وظيفة عقلية تترتّب على الانسجام والوحدة تقنع العقول وتؤثّر في التفكير، ممّا يؤدّي إلى تنظيم أمور الحياة تنظيمًا جيّدًا. أي أنّ الأعمال الفنّية ليس مجرّد وسيلة للمتعة والتعبير، بل هي أداة فعّالة تسهم في تحسين حياة الأفراد وتنظّمها، فهي تخاطب المشاعر والعقول معًا، وهي بذلك يمكن أن تقنع الأفراد بأفكار معيّنة للتفكير بطرق جديدة، وهذا ما وجدناه عند تولستوي؛ إذ عرّف الفنّ بأنّه وسيلة لنقل المشاعر والأفكار والأحاسيس بين الناس، فقد ربط الفنّ بالأخلاق.

3ـ يخلق الفنّ تيّاراتٍ وموجاتٍ من المشاركة الوجدانية بين الأفراد، وبذلك يؤدّي إلى خلق الوحدة الاجتماعية؛ إذ تتقارب المشاعر وتلتقي الرغبات والميول عن طريق النظّارة والمتذوّقين والمعجبين.

4ـ أنّ للفـنّ دورًا تربويًّـا؛ إذ يهـدف إلى تربيـة المشـاعر وزرع بـذور الفضيلـة والواجـب، فهـو أداة لترقيـة المشـاعر والتسـامي بالأحاسـيس. يقـول هيجـل: «إنّ هـدف الفنّ المهـمّ يكمـن في ... إرواء القلـوب، وإعطـاء الإنسـان النـامي أم غـير المتطـوّر بعـد الإمكانيـة للإحسـاس مـن جديـد بـكلّ ما يمكـن للنفـس البشريـة أن تحتويـه وتحـسّ بـه وتعانيـه» [عـوض، مقدّمـات في فلسـفة الفـنّ، ص 106].

5ـ للفـنّ وظيفـة عمليـة، فـإنّ منتجـات الفـنّ هي التي تحفـظ الآثـار التاريخية كالمعابـد الضخمة والقصـور والمسـاجد والأواني الفخاريـة وقطع النسـيج والملابـس القديمة والدروع ومقابض السـيوف المرصّعـة والتماثيـل والتوابيـت والعربـات والنقـوش الـتي تكون موضـوعًا للدراسـة العلميـة التاريخية وفهـم المجتمعـات البشرية. [بـو ريان، فلسـفة الجـمال ونشـأة الفنـون، ص 197]

6ـ للفـنّ دور حمـاسي، فهـو يشـدّ مـن العـزم لمواجهـة الأعـداء عـن طريـق الأناشـيد الحماسـية والموسـيقى العسـكرية الـتي تؤثّـر في حمـاس الأفـراد، فتدفعهـم إلى النضـال وتحقيـق أهـداف الوطن.

7ـ للفـنّ وظيفـة دينيـة، فنلاحـظ أنّ الدين يسـتخدم الفـنّ في المناسـبات الدينية المختلفة، سـواء كان رسـمًا أو موسـيقى دينيـةً أو نحتًـا؛ إذ نشـاهد فنّـاني عـصر النهضة قد برعوا في رسـم الشـخصيات الدينيـة، مثل السـيّد المسـيح والعذراء والعشـاء الرباني وغيرهـا، وكذلك نلاحظ فـنّ زخرفة الكنائس وتلويـن قبابها وزجاجهـا وحيطانها.

8ـ للفـنّ وظيفـة أخلاقيـة، فعلى الرغـم من أنّ هنالك مـن يسـتبعد أن يكون له هـذه الوظيفة، إلّا أنّ الإنتـاج الفـنّي يؤثّـر فينا مـن الناحية الأخلاقيـة في كثير من الحالات، وذلك حسـب فكـرة الفنّان الكامنـة وراء نتاجـه الفـني، فربّمـا كانت القصيـدة دافعةً لنـا إلى أن نبتعد عـن الرذيلة ونلـتزم حدود الفضيلـة. [المصدر السـابق، ص 198].

9ـ لقـد كان للتقـدّم العلـمي ووسـائل الإعـلام والدعايـة دور في اقـتراب الفنّ من نفس الإنسـان، وجعلتـه عنـصرًا لا يتجـزّأ مـن الحيـاة [عـوض، مقدّمـات في فلسـفة الفـنّ، ص 106]، ومثـال عـن ذلـك دور الفـنّ في تصميـم إعـلان عن المنتوجـات الغذائيـة أو الصناعية، فالعنـصر الجمـالي في الصناعة له قيمة عظـمى، فهو يسـاهم في جـذب الأشـخاص لها.

10ـ أنّ الوظيفـة الأساسـية للفـنّ خلـق عالـم إنسـاني جديـد، فالفنّـان يحمـل عالمًـا في جنباتـه، وأعمـاله تحـوّل العالـم المفروض عليـه إلى عالم يقيمه هو بنفسـه، كمـا أنّ الدور الخـاصّ والنهائي للفنّ هـو تكويـن الـوعي الفنّي والحاجـة للجمـال والإبـداع. [المصدر السـابق، ص 107]

الخاتمة

1ـ أنّ العلاقة بين الأنثروبولوجيا والأستطيقا قديمة منذُ القبائل البدائية، وقد حاول النقّاد تفسير تطوّر الذوق الفنّي في ضوء تطوّر العلاقات الاجتماعية؛ لما لاحظوه لدى القبائل البدائية من ارتباط الفنّ بالعمل الجماعي.

2ـ عند دراسة مفهوم الجمال في مجتمعٍ ما، يجب علينا دراسة مجمل العلاقات الثقافية والاجتماعية التي جاءت نتيجة التطوّر الاجتماعي التاريخي لذلك المجتمع، وبذلك يكون مفهوم علم الجمال مختلفًا بين حضارة وأخرى.

3ـ هنالك دور كبير للفنّ وعلم الجمال في المجتمع ، فإحدى وظائف الفنّ هي تطوير الوعي الإنساني وتحسين النظام الاجتماعي.

4ـ أنّ علم الجمال من وجهة نظر شارل لالو لا يمكن أن يغفل عن دراسة الإنسان والمجتمع، ممّا يجعل الأنثروبولوجيا أداةً أساسيةً في المنهج التجريبي لفهم الجمال

قائمة المصادر

ابوريـان، محمـد عـلي، فلسـفة الجمال و نشـأة الفنـون الجميلـة، دار المعرفـة الجامعيـة، القاهرة، 1993 م.

الشـكرجي، جعفـر، الفـنّ والأخـلاق في فلسـفة الجمـال، دار حـوران، سـوريا، الطبعـة الأولى، 2002 م.

الشماس، عيسى، مدخل إلى علم الانسان الأنثروبولوجيا، اتّحاد العرب، دمشق، 2004 م.

الصبـاغ، رمضـان، جماليـات الفـنّ.. الإطـار الاخـلاقي، دار الوفـاء الإسـكندرية، الطبعـة الأولى 2003 م.

بـنروبي، ج، مصـادر وتيّـارات الفلسـفة المعاصرة في فرنسـا، ترجمة عبـد الرحمن بدوي، المؤسّسـة العربيـة للدراسـات والنشر، بـيروت، الطبعة الثانيـة، 1980 م.

بـو ملحـم، عـلي، نحـو رؤيـة جديـدة في فلسـفة الفـن، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات، الطبعـة الأولى، 1990 م.

حسين، علي، فلسفة الدين.. رؤية جديدة، التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 2010 م.

زكريا، إبراهيم، فلسفة الفنّ في الفكر المعاصر، مكتبة مصر، 1988 م.

سـليمان شـناق، محمد، ماهيـة الأنثروبولوجيـا.. تعريفها ودورهـا، مجلّة أفكار أردنيّـة، العدد 422، 2024 م.

صديق، حسين، فلسفة الجمال ومسائل الفنّ، دار القلم، حلب، 2003 م.

عبد المنعم عباس، راوية، القيم الجمالية، دار المعرفة، الإسكندرية، 1987 م

عـوض، ريـاض، مقدّمـات في فلسـفة الفـنّ، جـروس بـرس، طرابلس الـشرق، الطبعـة الأولى، 1994 م.

لالـو، شـارل، مبـادئ علم الجمال (الأسـتطيقا)، ترجمـة مصطفى ماهـر، المركز القـومي، القاهرة، 2010 م.